النّزعة الوطنيّة في شعر سيدي لخضر بن خلوف.

الأستاذة: نصيرة شافع بلعيد، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

تقديم:

لا يفوت قارىء الشّعر الشّعبيّ أن يلاحظ ملاحظة هي غاية في الأهميّة، تلك الظّاهرة الّتي تثير انتباهه حتّى وإن تغافل عنها هو، ألا وهي النّزوع إلى الحريّة وإباء الضّيم والثّورة على الاستعمار، إنّها نفوس مرهفة الحسّ تتفجّر منها براكين التّمرّد، فتسيل حممها من كلّ بيت ومن كلّ سطر. ومن أبرز الشّعراء الّذين تميّز شعرهم الشّعبيّ بالنّزعة الوطنيّة أسطورة مستغانم؛ الوليّ الصّالح سيدي لخضر بن خلوف الّذي دوّن اسمه في التّاريخ بأحرف من ذهب كعاشق للحبيب المصطفي عليه الصّلاة والسّلام يمدحه فيقول :

إذا جعت من مدحك نشبع ...وإذا عطشت العسل شرابي

وكمجاهد في سبيل الله دفاعا عن الوطن والإسلام والعروبة من هجمات الكفار المتكرّرة، فقد كان بن خلوف فارسا مغوارا لا يخشى سهام العدوّ وهو القائل :

سيفي مجرد و انا نضرب في العدا والناس ضاجة من زجري بالخوف

خلفي وعلى يميني الجماجم راقدة والخلق طايحة تنحسب بالألوف

اسمه الكامل سيدي لخضر بن عبد الله بن عيسى الشّريف الإدريسيّ المغراويّ بن خلوف أمير المرابطين بمنطقة الظّهرة، من مواليد القرن السّادس عشر الميلاديّ أواخر القرن الثّامن الهجريّ، وتوفي في أوائل القرن العاشر للهجرة 1492م/1613م ، عن عمر ناهز 125 سنة، وينحدر هذا الوليّ الصّالح من السّلالة الشّريفة؛ إذ يعود نسبه إلى الإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، الّذي خصّه بمكانة مميّزة في قصائده إلاّ أنّه لم يكن متشيّعا [1].

وانتقل إلى تلمسان قصد التّقرّب من الشّيخ محمد عبد الحقّ بن عبد الرّحمن المعروف باسم سيدي بومدين بهدف التّعلّم وتصفية الرّوح وتكريسها للعبادة، له أعمال كثيرة منها القصيدة الّتي كتبها في مدح النّبيّ صلّى الله عليه وسلم تحت عنوان "يا تاج الأنبياء الكرام"، وقد قام المؤرّخ محمد بيخوشة بجمع حوالي 31 قصيدة للشّيخ عامّ 1985م في الرّباط تحت عنوان "**ديوان سيدي لخضر بن خلوف**".

يعدّ شعر بن خلوف مرجعا هامّا لحقبة مميّزة من تاريخ الدّولة الجزائريّة الّتي تكالب عليها الاستعمار الأسبانيّ ذو النّزعة الصّليبيّة من خلال الوصف الدّقيق للأحداث في قصيدتين؛ يروي فيهما ما وقع في ساحة الوغى الّتي خاضها شخصيّا ضدّ الغزاة الإسبان.

القصيدة الأولى تتحدّث عن معركة شرشال تعرف بـــ " قصّة شرشال " مدوّنة تاريخيّا، وهي رحلة طويلة في المقاومة كانت بدايتها الجزائر شمالا مرورا بالبليدة والأصنام ثمّ مزغران غربا حيث يقول:

في جبل شرشال حطينا للقتال * يحقّ في ذاك اليوم امرا بكاية**

يصف في هذه القصيدة – الّتي هي في الحقيقة ملحمة – حالة الجيش الجزائريّ، ومكانته فيه بعد أن كلّفه السّلطان خير الدّين بتجنيد المقاتلين، والصّلح بين القبائل والبطون المتناحرة ودعوتها إلى الوحدة للتّصدي للأعداء

، وقد قتل في هذه المعركة 150كافرا ، ممّا يبيّن شجاعة وبسالة الرّجل دفاعا على أرض العروبة والإسلام ضدّ جحافل الإسبان الكفار .

والمعركة الثّانية الّتي كتب وتكلّم عنها كثير من المؤرخين هي معركة " مزغران "[2] الشّهيرة الّتي وقعت أحداثها يوم 22 أوت 1558م؛ بعد أن تمكّنت قوات الغزاة الإسبان من دخول بلدة مزغران الّتي تبعد بـــ 4كلم عن مستغانم نتيجة تفوّقهم عددا وعدّة ، وصادف ذلك عودة المجاهدين وسيدي لخضر بن خلوف من بينهم إلى مستغانم .

انطلقت الحملة الأسبانيّة من وهران تحت قيادة الكونت دالكوديت الّذي جرّ وراءه جيشا مدجّجا بالأسلحة والمدفعيّة قوامه 12 ألف جندي؛ تسندهم جماعات من الأعراب الخارجة عن طاعة أولي الأمر من قبائل الغرب ، وسفن حربيّة راسيّة بخليج أرزيو تراقب الوضع عن قرب لتأمين الشّريط السّاحليّ، ولتزويد العساكر بالذّخيرة والمؤن ، قبل أن تعترضها السّفن الجزائريّة ، وبعد مقاومة قصيرة استسلمت سفن الغزاة فكانت الهزيمة والغنيمة ممّا حفّز وشجّع المجاهدين الجزائريين ونزل ذلك كالصّاعقة على الأسبان، فانهارت معنوياتهم قبل الدّخول في المعركة. فمعركة " مزغران " كانت سباقا ضدّ السّاعة ، فالقوّات الأسبانيّة حاولت التّحرك والتّقدّم بسرعة لاحتلال مستغانم، والتّمركز بها قبل وصول المجاهدين الجزائريين ، ووصلت فعلا إلى أبواب المدينة يوم 22 أوت 1558م؛ فاصطدمت بمقاومة شعبيّة نظّمها الأهالي الّذين انضمّ إليهم المتطوّعون من المناطق المجاورة وتكبّد الطّرفان خسائر بشريّة جسيمة . وكادت كفّة المعركة تؤول لصالح الإسبان غير أنّ وصول المجاهدين الجزائريين إلى ساحة الوغى ودخولهم في مواجهة حاميةّ؛ انتهت بإحكامهم السّيطرة على مشارف المدينة ومداخلها ، فألحقوا خسائر فادحة في صفوف العدوّ الّذي تراجع وتقهقر إلى الوراء واستحال عليه اقتحام أسوار المدينة الصّامدة . وفي صبيحة يوم 24 أوت تشتت صفوف العدوّ، وضاق عليها الخناق ودارت رحى المعركة الّتي شارك فيها البحارة المجاهدون بعد أن تركوا سفنهم ، فما كان من الإسبان سوى الفرار باحثين عن مخرج، غير أنّ المقاومين طاردوهم إلى مزغران، فقُتِلَ الكونت دالكوديت الّذي داسته الأقدام، ولم يتمّ التّعرّف عليه إلاّ بعد انتهاء المعركة في 26 أوت 1558م ، كما أُسِرَ ابنه دون مارتن بعد أن بلغ عدد القتلى والأسرى 12000. فإنّها المعركة الّتي كان سيدي لخضر بن خلوف أحد أبطالها ، إذ شارك مع القيادة العثمانيّة ضدّ الإسبان، وقد أبدع في تأليف قصيدة يذكر فيها بدقّة مغامرات هذه المعركة الّتي شبّهها بغزوة بدر الكبرى. تبلغ هذه القصيدة حوالي 98 بيتا متنوّعة الرّويّ والقافيّة، تفوح بالرّوح الوطنيّة والثّورة على الاستعمار، يفتتحها بقوله:

يا فارس من ثم جيت اليوم * غزوة مزغران معلومة**

يا عجلانا ريّض الملجوم * رايت اجناب ا لشلو موشومة[3]**

يا سايلني عن طراد اليوم * قصّة مزغران معلومة[4]**

ثمّ يسترسل في وصف أحداث المعركة وصفا دقيقا؛ فيذكر أنّها كانت بين النّصرانيّ وخير الدّين قائلا :

يا سايلني كيف ذا القصّة * بين النصراني[5] وخير الدين**

اجتمعوا في برهم الاقصى * بجيش قوي جاوا متهدّين**

ترى سفون الروم محترسة * صبحوا في المناء اعداء الدين**

إنّ النّزعة الوطنيّة وحبّ الوطن، وربط الأرض بالعرض هي الّتي جعلت الشّيخ سيدي لخضر يشارك في حرب الجيوش العثمانيّة ضدّ الإسبان في مياه بحر الرّوم؛ البحر الّذي يسمّى الآن بالأبيض المتوسّط، وكان سيدي لخضر في زمانه ورغم محاربته للرّوم يسلم من ناحية التّسمية أنّ البحر بحرهم مثلما كان ينعت الإسبان بالرّوم .

وتتجلّى في قصيدة "مزغران" غيرته على وطنه، وحزنه على ما آلت إليه أوضاعه إذ يقول :

أرفع راسك يا علي المفهوم * يا سيد الحسنين وافطيمة**

شوف بلادنا كيف راها اليوم * تسبيها الكفار ظالما**

ما باحوا بالصوت الأشطنا [6] * من زيدور لواد افكان**

قطعوا سيق وتوجهوا لهنا * زادوا بالحركة لمزغران**

اركب فارس اسبق ودنا * بالتعريف يبشر السلطان**

البارح يقول جات الروم * يا فرساني غاولوا انتما**

وتمتزج النّزعة الوطنيّة بالنّزعة الدّينيّة في شعر سيدي لخضر، إذ يعتبر المعركة بين الجزائريين والإسبان معركة بين الإسلام والكفر؛ وبالتّالي فانتصار الجزائريين هو انتصار للإسلام على الكفر :

بإذن الله الواحد القيّوم * تمسي بيت الكفر مهدومة**

جاوا شيوخ اسويد للسلطان * و فيهم ابو بكر و محمّد**

قالوا له يا أمير لا تليان * لا دين إلاّ دين محمّد**

طل الكافر لن شاف النّاس * حقّق في الخيبة مشى مجدوب**

باتوا الكفار حارمين النوم * ومزامير القنت معمومة**

جيش بلا سلطان غير يهوم * ضاقت به جناح معدومة**

الميّت منّا مشى مرحوم * واعمار الكفار مذمومة**

لقد كان الاحتلال الأجنبيّ يعني في اعتقاد الشّاعر الشّعبيّ غزوا للإسلام بالدّرجة الأولى، ذلك أنّ الإسلام في مفهوم الطّبقات الشّعبيّة هو المقياس الّذي يحدّد هويّة الإنسان الجزائريّ ، وليس مجرّد الانتماء إلى الوطن، ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله، والدّفاع عن الإسلام هو الهدف الأسمى من النّضال، وبتعبير آخر كانت الفكرة الوطنيّة مزيجا من العقيدة الدّينيّة والرّوح الوطنيّة[7].كما أنّ تقبّل سيدي لخضر والجزائريين عموما للعثمانيين، وعدم نظرتهم إليهم كمستعمرين بل ووقوفهم إلى جانبهم؛ إنّما كان بسبب الدّين لأنّ الأتراك مسلمين وليسوا كفارا مثل الإسبان والفرنسيّين، لذلك رأى سيدي لخضر خير الدّين بربروس وابنه حسن باشا من رموز الإسلام :

واين القسّاسين والرهبان * اللي عبدوا سيدنا عيسى**

حشاه روح ربّنا الرحمان * يتمثّل من قوم منجوسة**

من هو من فرسان ذاك القوم * الاّ زاد ظلام على ظلمة**

ترجّاه الإسلام لن يقوم * خير الدين بساير الأمّة**

يرحم ناسه من اخيار القوم * خير الدين وسيلة الرحمة[8]**

لقد كان سيدي لخضر بن خلوف شاعر نضال، ورفيق سلاح وحامل رسالة ، يستمدّ شعره من عاطفة دينيّة قوّية، ويحمل بين جوانحه ضميرا قوميّا شفافا ، رأى في أهداف الغزو الاستعماريّ غزوا للدّين، وهدما لكيان الإنسان المسلم ، في هذا الوطن الّذي يرفض أن يكون غير عربيّ مسلم. لم يهدف هذا الشاّعر من وراء نظم الشّعر إلى كسب الشّهرة أو الجاه ، وإنّما كان يهدف من وراء شعره إلى تصوير مأساة غزو استعماريّ ، استهدف دينه وثقافته، وعرّض حياة مواطنيه إلى البؤس والفقر وحوّل أمنهم إلى خوف ورعب وشقاء ودمار. وقد كان صاحب السّيف والقلم مثل المتنبي وأبي فراس الحمداني والبارودي والأمير عبد القادر ، فقد أدّى رسالته في الحياة بسلاحه إلى جانب شعره، فكان يمارس القتال والنّزال بنفس الرّوح الّتي كان يمارس بها نظم الشّعر ، فجاء شعره مطابقا لإحساس الثّائر ، وإصرار المجاهد ، بعيدا عن التّكلف والجري وراء الألفاظ الرّنانة والمبالغات الفارغة؛ مرتبطا بواقع الظّروف القاسية الّتي كانت تعيشها البلاد .

لقد عاش هذا الشّاعر قضايا وطنه، وتفاعل مع الأحداث الّتي جرت في بلاده ، فصاغ أحداث المعارك الضّارية شعرا ونشيدا للعبرة والعظة وإذكاء للحماس ، فكان شعره وسيلة فعّالة لزرع الرّوح الوطنيّة والمحافظة على الهويّة الوطنيّة والاعتزاز بها.

–الإحالات:

1– توفيق ومان – سيدي الأكحل الأخضر بن خلوف "شاعر الدّين والوطن"، سلسلة مشاهير المحون، الرّابطة الوطنيّة للأدب الشّعبيّ، ص:04.

2– مزغران : هي دشرة غرب مدينة مستغانم بالجزائر من عمالة وهران سابقا.

3– موشومة : هي فرس عليها جرح لشدّة السّير في ساحة القتال .

4– ديوان سيدي لخضر بن خلوف، جمع محمد بخوشة، الرّباط، 1985م، ص: 82.

5– النّصرانيّ : يقصد به هنا شاركان؛ العدوّ الأكبر للإسلام في ذلك الزّمان، وكان مسيطرا على إسبانيا وجزءا كبيرا من أمريكا وأوروبا .

6– الاشطنا : الشّياطين.

7–التّلي بن الشّيخ، دور الشّعر الشّعبيّ الجزائريّ في الثّورة، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1983م، ص:447

8–ديوان سيدي لخضر بن خلوف، ص: 85 .